

اللغة

والمجتمع الإنساني

لأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح
من علماء الأزهر - القاهرة -

واللغة فعله من لغوت أي تكلمت . وأصلها لغة ككرة ، وقلة ، وثبة . كلها لاماتها واوات ، لقولهم كروت بالكرة ، وقلوت بالقلة ، ولان ثبة كانها من مقلوب ثاب يشوب .

وقالوا فيها : لغات ، ولغون ، ككرات وكرون ، وقيل منها لغى يلقى إذا هذى قال :

ورب أسراب حجيح كظم

عن اللغا ورفث التكلم

وكذلك اللغو قال الله سبحانه وتعالى : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » أي بالباطل ، وفي الحديث « من قال في الجمعة صه فقد لغا » أي تكلم (2)

وقد يصعب على الباحث ، معرفة متى وأين وكيف بدأت اللغة . إلا أننا لا نعدو الصواب ، إذا قلنا : أنها بدأت عندما تكونت أول جماعة إنسانية في هذا الوجود ، ولا نعدو الصواب أيضا ، إذا قلنا : أن الجماعة الإنسانية الأولى - أيا كان طابعها - عندما تكونت صحبت معها مشاكلها الخاصة ، الناتجة عن علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، والناتجة عن علاقة الإنسان بالبيئة والطبيعة . وفي سبيل البحث عن حل لتلك المشاكل الجديدة في نوعها ، تولد النشاط الإنساني في استخدام الصوت ، لتكوين الفاظ لغوية بدائية الطابع ، والانصات لتلك الأصوات ، بما يتبعه من مسلك ذهني لفهم مدلولها اللفظي عن طريق الأذن . تجسد هذا النشاط الإنساني

اللغة ظاهرة اجتماعية اقتضتها حياة بنى الإنسان ، لان الله خلق هذا النوع أضعف قوة ، من كثير من أنواع الحيوانات الأخرى ، التي تعيش معه على الأرض ، ولكن الله عوض الإنسان عن قوة الجسم والسلاح ، قوة العقل ، ومنحه الاستعداد للكلام والتفاهم . فدعا بعض أفراد الإنسان بعضا للتفاهم والتعاون على اتقاء عادية الحيوان ، وعلى جلب المنافع ، وتحصيل المرافق ، واضطره ذلك الى سكنى المدن ، وانشاء المجتمعات ، ولذلك قال فلاسفة الاجتماع « الإنسان مدني بطبعه » أي أنه مضطر الى سكنى المدن ، ليتم فيها تعاونه وقدرته على استغلال ما أعد له في هذه الدنيا من مقومات حياته .

وكانت اللغة هي الاداة التي تكشف لبعض الأفراد عما في نفوس الآخرين . وقد كان التفاهم الإنساني أول الامر ، بالإشارات التي لا يزال بعضها في لغة الجماعات البدائية ، والتي تظهر في الطفل قبل أن يتعلم الكلام ، ثم حصل التفاهم بالأصوات التي تألفت منها الكلمات في اللغات المختلفة (1)

فاللغات أصلا أصوات ، وليست كلمات ، فان الكلمة صوت يرمز الى معنى ، وكتابة الكلمة رسم يرمز الى هذا الصوت ، والصوت هو الاصل .

والصوت يصنعه الهواء ، يخرج من رئة الإنسان ، وتقوم الحنجرة ، ويقوم اللسان ، ويقوم الفم ، وحتى الأنف ، باعطائه شكلا خاصا ، هو الكلمة المسموعة .

المتميز عن كائنات الطبيعة الاخرى ، في صحبات موسيقية ، تومي بمعان سحرية ، تختلف في دلالتها باختلاف موسيقاها .

بذلك تكون العنصر الاساسي للبيئة الثقافية الخاصة بالانسان وحده ، فاللغة بظهورها - كمرحلة عليا في مجريات التطور - خارجة خروجاً تلقائياً من صور سبقتها للنشاط الحيواني كان رد فعلها الحتمي، هو تحويل تلك الصور والضروب التي كان السلوك الجماعي يجيء على غرارها ، يضيف بعداً جديداً الى ابعاد الخبرة الانسانية ، ما نطلق عليه انسانية الوجود ، فالتعبير الرمزي عن الاشياء يحولها من اشياء قائمة بذاتها ، منفصلة عن الوجود الانساني ، الى جزء من هذا الوجود ، فمثلاً تسمية الساق الخشبية المنبثقة من الارض والمنتهية بأفروع ووريقات خضراء بلفظ « شجرة » هو بمثابة اذابتها في الوجود الانساني تقع تحت سيطرته وتفقد معنى وجودها بدونه ، وعلى هذا تسمية الشيء - اي اطلاق لفظ لغوي عليه - هو الخطوة الاولى للسيطرة على وجوده ومزجه بالوجود الانساني بعد المعرفة السابقة له كشيء منفصل عن هذا الوجود ، والقوة في التعبير الرمزي عن الشيء بلفظ لغوي ، تكمن في انشاق مواضيع من هذا الرمز ، لا تمت للشيء الرموز به أصلاً بصلة مباشرة ، وان كان هذا لا يتم الا بعد عدة مراحل من التطور اللغوي ، ومن هنا يتبين الفرق الاساسي بين التعبير الرمزي عن الاشياء والافعال برسمها والتعبير الحركي - الرقص - الذي من الصعب ان يتولد عنه شيء آخر ، بخلاف اللفظ اللغوي الذي يملك تلك الامكانية .

وليست على هذا الاساس ، البيئة التي يحيا فيها الانسان ، يعمل ويبحث مادية فقط . بل ثقافية كذلك ، فافعال الانسان وكيفية ادائه لها ، لا تتوقف على التكوين العضوي لجسده فقط ، بل البيئة والانسان يتأثران كذلك بمؤثرات تراثه الثقافي المنبث في التقاليد والنظم الاجتماعية والعادات والاهداف والمعتقدات التي تحملها الالفاظ اللغوية ، في طيها وتوحي بها .

والمشكلات التي تبعث على التقصي والبحث انما تنشأ من علاقات الناس بعضهم ببعض ، ولا تقتصر الاعضاء التي تختص بهذه العلاقات ، على العين والاذن واللسان ، بل من ادواتها كذلك ، تلك المعاني المتطورة على مر الحياة ، مضافا اليها وسائل التكوين الثقافي .

تحتل اللغة - اذن - في مركب العناصر التي يتألف منها المحيط الثقافي للانسان ، مكاناً ذا دلالة

خاصة ، وهي تؤدي وظيفة ذات دلالة خاصة ايضاً فهي في حد ذاتها نظام ثقافي ، وهي :

1 - الاداة الرئيسية التي تنتقل بها سائر تلك النظم الاخرى والعادات المكتسبة .

ب - والالفاظ التي تتغلغل خلال الصور ومضموناتها في آن واحد مما ، اعني الانظمة الثقافية الاخرى ومضموناتها .

ج - وتمتيز بتركيب خاص بها له قابلية التجرد باعتبار اللغة « صورة » من الصور ، ولهذا التركيب - اذا ما تجرد في صورته - تأثير حاسم من الوجهة التاريخية .

واللغة التي جاءت على هذا الوضع ، هي اللغة بأوسع ما اريد لها من معنى ، فاللغة بهذا المعنى المتوسع ، هي الوسيلة التي تتقمصها الثقافة فتبقى ، وعن طريقها تنتقل ، وهي ذلك التدوين الذي يديم بقاء الحوادث ، ويجعلها في متناول الناس عامة لبحثها من جديد ، ومن جهة اخرى ، فان الافكار او المعاني لا وجود لها الا في رموز يستحيل فهمها دون الرجوع اليها مرة ثانية ، وبذلك تشكل تلك الرموز ، نوعاً من البقاء الضروري لوجود الاشياء المرموز اليها ، بعد ان كانت بداية استخدامها وسيلة فقط للتعبير الرمزي عنها (3) .

ومن هذا يتبين ان علاقات العالم الداخلي النفسي والعالم الخارجي ، تتجسم في التعابير المختلفة ، توجد بوجودها ، وتنعمد بانعدامها ، انها شرط وعلة لها ، وبما ان الموضوع والذات ، اي المفعول والفاعل ، يلتقيان في الشعور الفردي ليحققا ، كان لزاماً على الدراسات النفسية ان تبدأ بالتعرف على حقيقة التعبير واصنافه .

فاللغة فن تقني (لان لها نماذج وقواعد متفقاً عليها) ولكن حقيقتها تندمج في حقيقة تاريخية ، التاريخ الفكري والنفسي والصناعي والجغرافي للامة او للامم المتكلمة بهذه اللغة ، ونقصد هنا بالتاريخ الماضي طبعاً ، ولكنه ماض يسترسل من الحاضر مع التأكيد بان الحاضر لا ينحصر في الحال ، بل هو ما يعبر عنه النحويون « بالمضارع » اي الحال والمستقبل ، لان ما يقوم به الانسان في الحاضر انما هو انجاز لما يريد ان يكون عليه ما بعد الحاضر ، فالمستقبل ليس مرادفاً للبعد كما ان الحاضر ليس منحصر فيما قد حضر فحاضر ليس وصفاً لحالة ، بل اسم فاعل ، اي انه الزمن الذي يقع فيه فعل فعلياً .

فالحاضر يختلف عن الماضي ، لان الماضي قد انتهى كحركة مباشرة ، ولم يبق الا في اشارة او في ذاكرة . ويخالف ايضا المستقبل لان المستقبل يصوب اتجاهه نحو الامام ويتقمص الامال .

فالمتكلم يغير اللغة ولكنه يخضع لاسها ومصطلحاتها ، كي يفهم ، فالكلام اداة للتفاهم ، لا غاية في ذاته . ان المتكلم يرمي من وراء الكلام ان يفهم المستمع انه يريد تواعلا .

لكن خلافا ، لما يمكن ان نظنه ان الانسان الاول ، لم يتكلم ليعبر عن مفاهيم وافكار ، ولم يتكلم لانه كان له شيء يجب ان يقال ، بل العكس ، لقد فهم وفكر وافهم لانه تحدث ، حيث ان ما راج في خاطره قبل ان يتكلم لم يكن مكيفا في شكل اولي يرمي الى قصد ، واني له ان يقصد الافهام قبل ان يحصل عنده فهم هو نفسه ؟

ان التفكير واللغة وجهان لواقع واحد . ان الجد الاول للانسانية لم يعبر عما فكر فيه لانه كان يفكر ، بل فكر لانه تكلم ، وهو لم يتحدث الا بعد ان انتهى من الحركة ، فللافعال - اي ما يقابل الاسماء - الاسبقية والمكان الاول ، والافعال آخر ما يضيع من الذاكرة . ان اللعب وهو عمل جماعي من اول الحركات التي يقوم بها الطفل ، فكل لعب في الحقيقة ، ملاعبة ، واداة اللعب بالنسبة للصبي غالبا ما تكون هو من يلعب معه من اقرانه ، او من الكبار ، فالاتصال الاول بين الصبي وعالم الاحياء ، هو الثدي ، وعند النظام تلهيه بثدي لا لبن له ، او بأشياء جامدة تشبه الثدي ، فاللعب عالم مصطنع بين الواقع واللاواقع ، اي حركات وامزة بتعدى الرمز عند الطفل دور الوساطة ويصبح غاية في ذاته ، نعني ان الرمز يتركز في الشعور كانه هو الواقع ، ويصير الواقع شيئا اجنبيا (4) .

وان اول اداة للتعبير اخترعها الانسان ، هي الآلة مثل الحجرة والعصا وهذه الادوات ان هي الا افعال مجسمة ، فالمعول شيء مشترك بين الانسان والحيوان .

يقلع (الشامبانزي) غصنا من الشجرة ، ليستعمله كما يستعمل الانسان العصا . لكن الفرق هنا ، هو ان القرد يستعمل آله في الحالة الحاضرة ، في حين ان الانسان يخلق بينه وبين الآلة صلات يملكها فيقول : هي لي ، هي لك ، هي لنا ، فيذخرها ثم ينقحها ويطورها ، ومن هنا يكسبها معاني جديدة ، وكرد فعل لذلك ، تكسبه هي بدورها كلمات جديدة (افعالا

واسماء) فهناك اذن : (ديالكتيك) للتطور الانساني في علاقاته بالادوات ، يؤثر بها ثم فيها ، وهي بدورها تؤثر فيه . فالانسان يتطور بقدر ما تتطور ادوات العمل .

فالانسان يمتاز عن الحيوان في علاقاته بالالات في كونه يستعملها ، وقد استعملها امس ، ويستعملها الآن ، ويحتفظ بها لما بعد .

وبمجرد ما اصبحت الآلة مصاحبة للانسان اي متصلة بالتاريخ تكونت حولها عادات جماعية : نعني اعرافا تقنية تتوارثها الاجيال (صنع الآلة وكيفية استعمالها واصلاحها) والاستعمال مجموعة عمليات تنشأ عنها نتائج يرجوها العامل لفائدة مباشرة او للمبادلة ، اي الآلة اول واسطة بين الانسان والعالم ، بين الانسان والمجتمع . فاللغة لا تنتعش الا في البيئات الغنية بالالات ، بالاشياء المصنوعة والمكتشفة ، لان كل لغة انما هي ادوات حضارية ، ان الجد الاول للانسان قد استعمل العصا في الصيد ، وقلد صوت الحيوان ، ثم تلفظ بمسميات للعصا وللصيد ، وللصوت وللطير ، فالحياة تدور حول اشباع الحاجيات ، وهذا الاشباع يدفع الى العمل ، والعمل يدفع الى اكتشاف الآلات او الى صنعها ثم ترقيتها .

هكذا تكثر الاتصالات المجتمعية حول اعمال مشتركة ، فتتجلى مختلف التعايير من علامات واشارات ولفات ورموز .

من هذا التحليل نصل الى اصل المعرفة ، واصل الاحداث التاريخية ، واصل المجتمع الانساني ، وبالتالي هنا يبدأ التفكير الفلسفي .

ان الفلسفة بطبيعة وظيفتها ، تشتغل بمعرفة الانسان والعالم وعلاقاتهما ، فهي تبحث فيهما ، والبحث حديث ، والحديث نقاش كلامي .

والانسان هو الحيوان الذي يتكلم ، اي يصنع العالم بالالفاظ ، فتصبح كل لفظة اما مفتاحا لفهم ، او اداة مواصلة واتجاه ، واما تحديدا لسلوك فردي ، او جماعي ، فالكلمات كالاوراق النقدية والاسلحة او الخاتم السحري في يد الانسان ، يكفيه ان ينطق ليحدث شيئا في شعوره ، ورد فعل في شعور الآخرين ، ومن هذا التجاوب الشعوري ، ينتج صدى يحرك الطبيعة الخارجية ، فالكلام خلاق ، ان الكلمة الواحدة تحدث احيانا فسادا ، وحيانا اصلاحا . واذا لم يتسبب عنها شيء محسوس عند المتكلم ، ربما حصل ذلك عند

المستمعين ، أو عند متكلم آخر ، مرة أخرى ، فالكلمة كالدرهم الذي يحتفظ بقيمته التداولية سواء انتقل إلى بائع وإلى مشتر ، أو لم ينتقل « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة »

فالبحث في الكلمات من حيث تركيبها المادي ، ومدلولاتها المحسوسة ، وآثارها النفسية ، يلتقي في ميدان واحد مع كل بحث يدور حول الإنسان ، وحول المعرفة . ومن هنا كان التأمل في اللغة فلسفة وعلمًا ، وبما أن اللغة حركات وإشارات ورموز اتخذتها الفلسفة واتخذها العلم أداة للتعبير ، هكذا نرى اللغة في نفس الوقت ، مادة للبحث وأداة له ، إذ أنها تأمل ينعكس على ذاته .

واللغة ليست شيئًا خاصًا بفرد ، بل ملكًا مشتركًا ، أنه (بين) : بين المرء وشعوره ، بين الشعور كحالات وإحساسات ، وبين أبرازها كأحداث ، بين المعنويات والماديات ، بين (الانا) والآخرين ، بين الإنسان والعالم .

اللغة هي الوساطة العظمى والصفوى في الغياب وفي الحضور ، فيما كان وفيما هو كائن ، وفيما سيكون .

اللغة تعبير (الانا) ونداء للآخرين ، أي دعوة ودعاء ، فالمرء يعطي كلمة « الشرف » فيلزمه الكلام أمام نفسه وأمام المجتمع ويقيد سلوكه ويفرض عليه مسؤولية ، ورجل لا كلمة له ، رجل ينقصه الضمير ، نعني أن إنسانيته غير كاملة ، فالكلام يرتفع من حركة التعبير ، إلى مستوى العناصر « الأنطولوجية » ربما استطعنا أن نقول : الإنسان جسم وروح ولغة (5) .

بعد هذه الفذلقة الفلسفية في الكلمة والمفهوم والتعبير ، نعود إلى جوانب هامة من اللغة فنقول : إذا أردنا أن نعرف أهداف اللغة المكتوبة والتكلم بها والتي قال عنها ابن جني في الخصائص ، والجرجاني في التعريفات : أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وجدنا أنها :

1 - هي أداة التفكير الإنساني ، فالقاموس اللغوي الذاتي ، يشكل إلى درجة كبيرة طبيعة التفكير واتجاهه .

2 - تقلل الأفكار والمشاعر من إنسان إلى آخر .

وهذان الهدفان ينبعثان من ذات الإنسان كوجود مستقل ، ويتجهان أثر ذلك اتجاهين متضادين :

أحدهما إلى خارج ذات الإنسان يقوم بعملية نقل الأفكار والمشاعر ، والآخر إلى داخل الذات ، حيث يشكل طبيعة التفكير ونوعيته ، وكمرحلة لهذين الهدفين اللذين ينبعثان من ذات الإنسان ينشأ الهدف الثالث . وهو الهدف الاجتماعي والترابط الإنساني ، والتفاهم البشري (6) .

وقد لخص العالم « أولبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فقال :

1 - أنها تجعل للمعارف والأفكار البشرية ، قيمة اجتماعية بسبب استخدام المجتمع للغة بقصد الدلالة على أفكاره وتجاربِهِ .

2 - وأنها تحتفظ بالتراث الثقافي والتقاليد الاجتماعية جيلًا بعد جيل .

3 - وأنها باعتبارها وسيلة لتعلم الفرد ، تعينه على تكييف سلوكه وضبطه حتى يلائم هذا السلوك تقاليد المجتمع وسلوكه .

4 - وأنها تزود الفرد بأدوات التفكير ، وما كان المجتمع البشري البصير إلى ما هو عليه الآن ، بدون التعاون الفكري لتنظيم حياته ، ولا يتأتى هذا التعاون الفكري ، إلا بالتفاهم وتبادل الأفكار بين أفراد المجتمع ، والوسيلة العملية المسورة لهذا التبادل والتفاهم ، هي : لغة الكلام ، وبدونها ينحط التفاهم إلى مستوى التعبير عن المدركات المحسوسة والانفعالات الأولية (7) .

فاللغة أهم مظهر لوجود الجماعة والمحافظة على كيانها ، وإذا تدرجنا إلى مستويات المجتمعات الحضارية نجد أن اللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات هذا المجتمع . فوحدة الغايات والمبادئ تدعو إلى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والأفعال ، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي ، دوره كرمز مشترك متفق عليه من كافة أفراد مجتمع اللغة الواحدة .

فاللغة باعتبارها شرطًا ضروريًا لتماسك المجتمع ، إنما تقع في كونها من جهة ضربًا من السلوك البيولوجي الخصيص بأدق المعاني ، ناشئًا تلقائيًا من المنشئ العضوية الأولى ، وفي كونها في الوقت نفسه - من جهة أخرى - تضطر الفرد الواحد من أفراد الناس أن يلتزم بوجهة نظر سائر الأفراد الآخرين ، وأن ينظر إلى الأمور ، وأن يجري عليها البحث من زاوية

بالنسبة للشق الاول من وظيفة اللغة ، فواضح ان طبيعة التخصيص تبدو في وظيفة كل فرد ، بحيث لا يمكن أن يكون خبازا أو ناسجا وحدادا ونجارا وصيادا في وقت واحد .

ومن هنا كان على الفرد أن يعتمد في اموره على غيره من أصحاب هذه المهن ، وأن يتصل بهم لقضاء حاجاته ، ولا سبيل الى هذا الاتصال ، ولا الى قضاء الحاجات الا بواسطة التفاهم ، ولا بد للتفاهم من لغة ولو راقب المرء نفسه يوما واحدا من حقل الاستعمال اللغوي ، لراى كيف يعتمد وجوده الى حد كبير على وجود اللغة ، بل ان مصالح الانسان قد تتوقف على حسن استخدامه للغة ، لا على مجرد الاستخدام .

واما الشق الثاني : من وظيفة اللغة وهو : تهيئة الوضع المناسب ، لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية ، فان اللغة أصل وجذر لكل ما يمكن أن تنصوره من عوامل تكوين المجتمع ، كالتاريخ المشترك ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، والفكر والاحساس ، والارادة والعمل المشترك ، اذ لا يقوم شيء من ذلك بدون اللغة ، وكيف يمكن تصور تاريخ بلا لغة ، أو دين بلا لغة ، أو فكرة بدونها ، أو احساس لا يترجم عنه بها ، بعد ان يتم تكوينه بواسطتها ، أو ارادة تقوم بغيرها ، أو عمل يتحقق بعيدا عنها .

ان الشركة في كل أولئك ، هي الحياة الاجتماعية ، ولا تتم هذه الشركة بدون اللغة (10) .

ويعتبر بزوغ اللغة وبروزها الى الوجود اثناء عملية تطور البشر وارتقائه من المظاهر القائمة التي تمتاز بما لها من اهمية وخطورة بالغتين .

وذلك ان الوسيلة الوحيدة الفعالة التي نتمكن بها من ادراك معنى الحياة ، وتوضيح معالمها ، ونعت مظاهرها هي اللغة .

فمهمة اللغة هي تمثيل العالم على مرآة تمكسه ، وفلسفة اللغة تنطوي على انعاشها ، وتنسيقها بحيث تصبح مطية للمعاني ووسيلة للاتصال والتفاهم ، ورمزا للحقيقة ، وشارة للواقع .

قال الامام محمد عبده : اللغة مجلس للفكر وترجمان له (11) .

وجاء عن محمد المبارك : ان اللغة سبيلنا الى اكتشاف جواني الامة التي تتكلمها ، واستكناه خصائص روحها التي تكمن وراء برانيها (12) .

لا تقتصر على فرديته الذاتية وحدها ، بل تكون مشتركة بينه وبينهم ، باعتبارهم شركاء أو اطرافا متعاقدة ، ان شئت فهي مشروع مشترك ، لاشك قد يكون عنصرا من عناصر الوجود الفعلي الذاتي هو الوجه والهدف لنشوء اللغة . ولكن الذي لاشك فيه ايضا ، أنها تهم أول ما تهم شخصا آخر - المستمع - أو اشخاصا آخرين ، يوجه اليهم المتكلم الحديث ، فوسيلة التفاهم بين المتكلم والمستمع تقيم شيئا مشتركا ، ومن ثم بمقدار ما يكون للغة من هذا الاشتراك تصبح عامة وموضوعية (8) .

واذا اردنا أن نعرف اللغة ، تعريفا جامعا مانعا - كما يقول علماء المنطق والاصول - على ضوء تحديد ماهيتها ، فاننا نجد ذلك في منتهى الصعوبة ، ولو تحقق الوصول الى تعريف جامع مانع ، فسنجد اننا انتهينا الى نص لا يمكن أن يكون تعريفا أبدا ، يقول الدكتور تمام حسان : ان تعدد مظاهر اللغة من صوتية الى كتابية ، الى اشارية حركية ، الى اشارية ضوئية ، الى لغة باللمس على طريقة المكفوفين الى غير ذلك ، لابد أن يفرض على نص التعريف الذي نحاوله أن يطول حتى لا يعود تعريفا ، اذ يصبح وصفا مسهبا لمدة أمور ، كل منها « لغة » ويبقى بعد ذلك أن يلجأ العلماء في تعريف اللغة الى بيان وظيفتها (9) .

وقد قال بعض العلماء في بيان التعريف : ان اللغة وسيلة لايضاح الافكار . وقد رد العالم « تاليران » على ذلك بأن اللغة وسيلة لاختفاء الافكار ، لا لايضاحها . وقد قال علماء آخرون : ان اللغة وسيلة للتعبير . وقد اعترض على هذا التعريف بأن المرء قد يتكلم الى نفسه أحيانا ، حتى لا يكون بحاجة الى التعبير عن افكاره ، اذ يكون قد عرفها فعلا ، وادركها ادراكا أعمق مما تستطيع كلماته أن تعبر عنه .

وقال بعض العلماء : ان اللغة افراز حركي ضروري للفرد . وصالح لان كيف بالكيفيات الاجتماعية ، وبهذا يمكننا أن نفسر كلام المرء الى نفسه ، وكلامه الى صاحبه .

وقال « هنري دولاكروا » : اللغة هي دالة الفكر . والحقيقة ان اللغة ، في عمومها ، ذات وظيفة هامة جدا يمكن أن تلخص في أمرين :

- 1 - امر فردي : هو قضاء حاجة الفرد في المجتمع .
- 2 - امر اجتماعي خالص : هو تهيئة الوضع المناسب لتكوين مجتمع وحياة اجتماعية . فاما

ومما هو جدير بالذكر ان انظار العلماء اختلفت
- في تعريف جامع مانع للغة - طبقا للمفاهيم التي
يدرسونها .

ولذلك نرى فريقا يعرفها على اساس عقلي او
نفسي ، ويمثل هذه المدارس ذلك التعريف ، وهو : ان
الغة استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الافكار
ونقلها من شخص الى آخر ، ومن مؤيدي هذه المدرسة
العالم الامريكي « ساير » . وينظر علماء الفلسفة
والمنطق الى اللغة باعتبارها الوسيلة للتعبير عن الافكار
فيقول الاستاذ جفوتز في كتابه « مبادئ دروس
المنطق » : ان للغة ثلاث وظائف :

1 - كونها وسيلة للتوصيل . 2 - كونها مساعدا
اليا للتفكير . 3 - كونها أداة للتسجيل والرجوع .

وينظر علماء المجتمع اليها باعتبار وظيفة في
المجتمع ، فيعرفها العالم اللغوي الأمريكي (ادجار
ستير تفت) بانها : نظام من رموز ملفوظة عرفية
بوساطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية
المعينة .

ومن التامل في هذه المجموعة من آراء العلماء
يتبين ان تعريف علماء النفس والمنطق يهدف الى ناحية
واحدة ، لا يتفق والمطلوب من اللغة في المجتمع الانساني
لأنها لا تتقف عند حد التعبير عن الافكار ، وتوصيلها الى
الاذهان كما يقول علماء المنطق لان ذلك يقصر وظيفة
اللغة على طبقة من الناس هم اهل الفكر ، حال اشتغالهم
بأمور فكرية .

ولا يمكن ان يقال ان اللغة أداة لنقل الافكار ، وانما
هي وسيلة للتعاون والترابط بين افراد المجتمع ، فاننا
نتبين كثيرا من الناس يتكلمون في موضوعات ، وليس
يعنيهم نقل افكارهم الى غيرهم ، وانما يكون القصد
من حديثهم الترفيه والتسليّة ، او النظر في أمور
تخصهم في ادارة شؤونهم .

وبذلك يبدو ان رأي علماء المجتمع بتعريفها
تعريفا يتناسب مع وظيفتها في المجتمع هو خير
ما تعرف به اللغة ، واذا كان ذلك صحيحا فينبغي ان
تشير الى تعريف الاقدمين للغة : وهو انها اصوات
يعبر بها كل قوم عن اغراضهم (13) وهذا التعريف
للجرجاني وابن جنّي . ومن الملاحظ ان هذا التعريف
قد تمشى مع وجهة علماء المجتمع تمثيا دقيقا لان
الاصوات ما هي الا الرموز الصوتية التي تنبئ عن
مدلولات خاصة للتعبير عما يحتاج اليه الانسان في

حياته سواء كان احتياجا عاديا كشئون الناس في
حياتهم المتعمشة مع احتياجاتهم في كل اوقاتهم ، ام
كان احتياجا ضروريا كاحتياج الباحث للتعبير عن
الافكار القائمة بنفسه لتوصيلها الى اذهان الدارسين .

وان اللغة ذات اثر قوي في حياة المجتمع الانساني ،
لأنها السبيل لفهم الاشياء المحيطة بالناس ، والطريق
لارتباط افراد المجتمع بعضهم ببعض ، والموصل
للافكار القائمة بالاذهان ، والمهيئة لرفي الامم في شتى
نواحيها (14) .

وقال (جون لوتز) : الوجود البشري ملتحم
باللغة . فاللغة ظاهرة انسانية اجتماعية تصاحب سلوك
الناس في كل لحظة ، وترافق المجتمعات في اطوارها
التاريخية المتلاحقة ، فيصحبها ناموس التغير الحتمي
الذي يجعها أداة صادقة للتعبير ، باللفظ والرمز
والايحاء ، عن حياة المجتمعات العقلية والحسية ،
ومعيارا دقيقا لرفيها او انحطاطها في ميدان الثقافة
والعلم والحضارة .

واللغة لذلك لا تعرف التحجر ، وهي قدرة
على العمل ، قدرة كامنة ، وهي لا تفتا تتغير شكلا
ومبنى ، تتغير حروفها واصواتها او صيغتها وبنائها
او من ناحية معناها ، فقد تنقل الكلمة من معنى الى
آخر ، او تضيف الى معناها معنى آخر جديدا دون
ان تترك الاول .

وان تطور لغة ما مرتبط بتطور الاقوام التي
تنطق بها ، واللغة والتطور عنصران مرتبطان ، وهما
سمة المجتمعات منذ اقدم العصور ، ولا سبيل لتفضيل
لغة على أخرى ، وانما يكون التفاضل بين الوسائل
المتبعة لتنمية اللغات واغناء تراثها التعبيري .

الامة البدائية حتما لغتها بدائية وغير مصقولة
ومفتقرة الى عديد من العبارات والالفاظ التي تؤدي
المعاني الحسية والمجردة ، فهي لذلك تقتصر على
التعبير عن تفكير هذه الامة ووسائلها الثقافية المحدودة
وكلما ازداد تفكير المجتمع اتساعا ، وثقافته نموا ،
تطورت لغته وازدادت قدرتها على التعبير واعطاء كل
سمة لفظا مناسباً .

ان اللغة تمنح الانسان بالاضافة الى ورائته
البيولوجية خطأ آخر للاستمرار ، يجعل الثقافة ،
وتراكم المعرفة ، أمرا ممكنا .

وقد اتاح العلم الحديث للغة إمكانات ووسائل
متعددة للتعبير عن دقائق الاحكام العقلية في صورها

ويمتاز لسان الانسان بقدرته على التعبير عن
الاحاسيس والمشاعر تعبيراً ذا قوة ودلالة .

والفكر الانساني له الاحمية العظيمة في سبيل
تقدم اللغة ونموها وازدهارها ، فاللغة هي الصق
الاشياء بالانسان واعسرها انفكاكا عنه ، وهي الرابطة
التي تربط بين الانسان ، ومعاني الحياة والكون
والمجتمع .

جاء في الابنيشد (18) : ان لم يكن النطق موجودا لم
نهند سبيلا الى معرفة الحق ولا الباطل ، ولا الصدق
ولا الكذب ، ولا الفرح ولا السرور ، والفضل لفهمنا
لمعنى هذه المظاهر ، وادراك مفهوم هذه المشاعر ، يرجع
الى النطق ، ولذلك حقق لنا ان نتبصر في النطق
ونتمتع فيه (19) .

وقال العالم الهندي همايون كبير : لعمري ان
ذلك - يشير الى النطق - من الآلاء التي خصص الله
بها الانسان ، دون سائر خلقه ، من ان يقدر على تحليل
الموقف وتفكيكه فاقباسبه منه النتائج الممتعة ثم تطبيقها
في ظروف اخرى ملائمة حيث دعت الحاجة الى ذلك .
ولا شك ان معظم الفضل في ذلك لعائد الى لسان
الانسان . وان التقدم في اللغة يدل على مدى التقدم
الذي احرزه المجتمع أو افراده . ونخرج من كل هذا
الى ان اساس اللغة ينبعث عن التأثيرات العاطفية
وتقدمها ورفيها ويرد الى التفسح في الفكر ، وتغلب
البشر العلمي على العالم ، الا انها قد تتسامى فتجاوز
حدود العواطف والفكر كليهما ، حيث انها تنشيء
رباطا يربطهما ، فتترد وسيطا ومحيطا معا ، وهي اذن
- لاشك - اوسع نطاقا وافصح مجالا ، فان الكل في
مجموعه اوسع واكبر من اجزائه (20) .

فاللغة عنصر ضروري لبقاء وتماسك وحدات
المجتمع - أي مجتمع - فوحدة الفايات والمباديء
تدعو الى البحث عن دلالة شاملة للاشياء والافعال ،
وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في صورة لفظ واحد
مشترك ، يدل على هذا الشيء أو الفعل ، وبذلك يلعب
اللفظ اللغوي دوره كرمز مشترك متفق عليه ، من
كافة افراد مجتمع اللغة الواحدة .

وعلماء اللغات : صنفوا اللغات وبوبوها وحللوها ،
فوجدوا بينها اشباها ، استطاعوا بناء عليها ان يصنفوها
ثلاثة اصناف على قدر الامكان ، وهي صنوف ليست
متميزة ، بعضها عن بعض كل التمييز ، ولا متفاصلة
كل التفاصيل .

النظرية والتطبيقية ، كما اتاح للالفاظ المعنوية المجردة
انطلاقات جديدة مالت بها نحو وضوح اكثر ، وتخصيص
ادق ، واصبحت الكلمات بفضل تقدم الآداب والفنون
غنية بالايحاءات التي تعمقت اغوار النفس البشرية
حتى صار عدد من الفاظ اللغة عالما من الاشارات
والرموز المعبرة عن ادق المعاني المجردة واعمقها (15) .

وقال الدكتور عثمان امين : وشواهد الماضي
وتجارب الحاضر في الشرق والغرب تثبت في وضوح
ان اللغة على الاطلاق هي اقوى عوامل الوحدة والتضامن
بين اهلها ، حتى لقد ذهب العالم اللغوي (ادوارد
سابير) الى ان اللغة هي على الارجح اعظم قوة من
القوى التي تجعل الفرد كائنا اجتماعيا ، ومضمون هذا
الراي امران : الاول ان اتصال الناس بعضهم ببعض في
المجتمع البشري لا يتيسر حصوله بدون اللغة ، والامر
الثاني ان وجود لغة مشتركة بين افراد قوم او امة من
شأنه ان يكون هو نفسه رمزا ثابتا فريدا للتضامن بين
الافراد المتكلمين بها (16) .

وقال الفيلسوف (فشته) : ان اللغة تلازم الفرد
في حياته ، وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخص
رغباته وخطراته . انها تجعل من الامة الناطقة بها كلا
متراصا خاضعا لقوانين . انها الرابطة الوحيدة
الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الازدهان (17) .

ولنتعمق في مفهوم اللغة ، فاذا هي اهم واعز
ما ملكته النفس البشرية من حيث جريانها في عروق
الانسان مجرى الدم ، حتى ان كل تمدد خيالها يعتبر
تعديا خيال الشخصية الانسانية ، وهناك من الفلاسفة
علماء اجلاء حاولوا تفسير اللغة باصطلاحات فلسفية
دقيقة .

فمن قائل : انها ليست الا مجموعة اختلقها الفكر
البشري ، وامكن تعديلها حسب المباديء الموضوعية
من قبل .

وقد بذلت جهود جبارة في سبيل ابداع لغات
مصطنعة ، الا أنها باءت بالفشل كما شهد بذلك تاريخ
الانسانية .

وكثير من علماء اللغة يردون نشأة اللغة
وازدهارها الى العواطف الانسانية ، وهذا هو الاقرب
الى الصواب ، لان اول مدرسة يربى فيها الطفل هي
مدرسة الامومة ، وفيها يرضع الطفل من امه اللغة كما
يمتص خصائصها الذاتية تماما بتمام .

1 - الصنف الاول : اللغات العازلة وهي لغات فيها الكلمة الواحدة غير متغيرة لا تشتق منها كلمات . انها اسم ، وفعل ، وصفة ، وظرف في آن واحد ، واكثر هذه اللغات كلماتها ذات مقطع واحد ، واكثرها عندها للكلمة الواحدة اكثر من صوت واحد ، تنطقها نغمة عالية ، او تنطقها نغمة منخفضة ، او تنطقها متقاصرة ، ولكل من هذه الانعام للكلمة الواحدة معنى بذاته . وتتعدد الانعام وتختلف ، فاللغة الصينية الكنتونية بها ست نغمات ، وكذا السيامية ، اما لغة (برما) فلها نغمتان .

ومن اللغات العازلة Isolating اللغات الصينية التبتية .

ومن اللغات العازلة كثير من لغات افريقيا وهي تبلغ ما بين خمسمائة الى سبعمائة لغة .

ومن اللغات الهندية الاوربية ، وهي غير عازلة ، لغات مالت الى هذا المزاج العازل بعض الشيء لاسيما الانجليزية مثال ذلك لفظ Light انه اسم وفعل وصفة . النور او ينير او منير ، ويفرق بين المعاني الثلاث موضع اللفظ من الجملة ، اي السياق .

2 - الصنف الثاني : اللغات اللاصقة وهي التي تؤلف الكلمات فيها بالصلق فيتغير معناها ويتبدل .

والصلق يكون باضافة مقطعين بعضا الى بعض فتكون كلمة لها معنى جديد ، او قد تصنع الكلمة من اكثر من مقطعين .

وهذا الصنف اللاصق Agglutative من اللغات هو اكثر الصنوف الثلاثة في اللغات عددا ، وهي يتضمن اللغة السومرية القديمة ، ولغة اورال والقوقاز ، واللغات الدرافيدية واليابانية والكورية ، ولغات المحيط الهاديء ، واللغات الافريقية ، واللغات الوطنية لمواطني امريكا الاصليين .

3 - الصنف الثالث : اللغات المتصرفة ، وهي اللغات التي تدخل كلماتها التصريف ، فالكلمة يتغير بناؤها ، فتدل على معنى جديد ، كتب ، يكتب ، كاتب ، مكتوب ، كتاب ، كتب وما الى ذلك .

ويدخل في هذا الصنف اللغات الهندية الاوربية ، وكذا اللغات السامية ومنها اللغة العربية وكذا الحامية .

ويلاحظ أن بعضا من هذه اللغات المتصرفة Infectinal ما يضيف الى الكلمة مقطعا تصدر

به الكلمة فيتغير معناها Préfixe اي سابقة ، او مقطعا تذييل به الكلمة فيتغير معناها Suffixe اي لاحقة او كاسحة ، وهذا من صفة اللغات اللاصقة (لا المتصرفة) ومعنى هذا ان اللغات قد لا تكون لاصقة خالصة او متصرفة خالصة .

ومثال اللغات المتصرفة التي مالت الى اللصق ، اللغة الانجليزية فنقول Hope ومعناها « الرجاء » ، ونقول Hopeful ومعناها مليء بالرجاء ، ونقول Hopeless ومعناها « لا رجاء فيه » ، ونقول Sense ومعناها « معنى » ونقول Non sense ومعناها « لا معنى له » وهلم جرا .

واذا اردنا أن نصرف اصول اللغات ، وهل هي من اصل واحد ، أم من اصول متعددة ؟

وجدنا ذلك في منتهى الصعوبة ، فالعالم لم يكشف للآن اصول اللغات الاولى ، ولم يعرف اي الاصول - من اللغات التي توصل اليها - اصل ، الا انه مما لا يسوغ انكاره ان العلم لم يعرف الكلمة الاخيرة وهو كل يوم يأتي بجديد ، ولعله يأتي بجديد يوصل الى قديم ، ممتدة جذوره في الماضي السحيق .

ولغات العالم التي هي من اصول غير معروفة نذكرها فيما يلي :

- 1 - السامية وفروعها وهي : العربية والحبشية والحامية والعبرانية .
- 2 - الملاي والبولينيز .
- 3 - الدرافيدية .
- 4 - البننتو .
- 5 - الاوربية الهندية وهي تنفرع الى :

أ - الايرانية الهندية وهي : الافغانية ، الاردو ، الهندستانية ، البنغالية ، الكردية ، السيلانية ، الفارسية ، السنسكريت .

ب - السلتية ، وهي : الويلزية ، الارلندية ، البريتونية .

ج - الالبانية .

د - الجرمانية النيتونية ، وهي : الدنمركية ، الانجليزية ، الالمانية ، بدسن « اي الاسرائيلية الالمانية » ، السويدية ، الايسلندية ، النرويجية .

هـ - البلطيك ، وهي : اللوانية ، الليتية .

و - السلافية ، وهي : البولندية ، الروسية ، البلغارية ، التشيكية ، السلوفاك ، السلوفين .

عائلات لغات الارض المختلفة ، وما تفرع منها ، والفرع الواحد يحمل لغات متشابهات .

ان جذورا نشأت منها اللغات ، لكن التاريخ طواها وهي اليوم ترقد في أعماقة يعجز الانسان عن استشفافها ، وليس للانسان إلا الحاضر من هذه اللغات ، وهذه اللغات الحاضرة انما هي أنسال تلك اللغات البعيدة الغابرة .

والولد كثيرا ما يحمل من أجداده ، سمات تدل عليهم مهما طال الزمن . بل كل الكائنات الحية ، تحمل الخصائص الذاتية لأبائها تبعا لقانون الوراثة ، مع موافقة قانون التطور العام .

كذلك اللغات تطورت مع الزمن تبعا للقانون العام ، الا ان الوراثة تدل على الاصل أو ترشد اليه ، أو تحتفظ بعناصر أصيلة من الاصول الاولى .

ز - الارمنية .

ح - 1 - اللاتينية ، ب - الإيطالية الرومانسية ، وهي : الرومانية ، البرتغالية ، الإسبانية ، الفرنسية ، الطليانية .

ط - اليونانية .

هذه هي شجرة اللغات الاوربية الهندية .

6 - اليابان ، كوريا .

7 - الاورال وما اليها .

8 - منغوليا .

9 - الصين والتبت (الهند الصينية) وهي : الصينية ، تيلاندية ، برماوية ، وما اليها (21) تلك اصول لغات العالم ، وهي تعطي فكرة عامة عن

مراجع البحث

- 1 - مجلة « المعرفة » السنة الاولى ج 3 ص 11 مايو 1960 المملكة السعودية .
- 2 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 31 - 32 ط الهلال بالفجالة (مصر) 1331 هـ .
- 3 - مجلة « اللسان العربي » العدد 3 ص 54 المغرب - الرباط 1385 هـ .
- 4 - مجلة « دعوة الحق » العدد 5 السنة السادسة 1382 هـ المغرب .
- 5 - نفس المصدر السابق ص 29 - 40
- 6 - مجلة (اللسان العربي) العدد 3 ص 55 الرباط - المغرب 1385 هـ .
- 7 - كتاب (اللغة العربية) لعبد العزيز عبد المجيد ج 1 ص 19 - 20 القاهرة 1961 م .
- 8 - مجلة (اللسان العربي) العدد 3 ص 55 الرباط 1385 هـ .
- 9 - مجلة (المجلة) العدد 114 يونيه 1966 القاهرة .
- 10 - مجلة (المجلة) العدد 114 مقال الدكتور تمام حسان - القاهرة .
- 11 - مجلة (المنار) للسيد رشيد رضا المجلد 3 ص 303 - القاهرة .
- 12 - مجلة (منبر الاسلام) مقال عبقرية اللغة يوليو 1961 م - القاهرة .
- 13 - الخصائص لابن جني ج 1 ص 21 ط الهلال 1331 هـ القاهرة وكتاب التعريفات للجرجاني مادة « لغة » .
- 14 - كتاب (اللهجات العربية) لابراهيم نجا مطبعة السعادة بمصر 1965 م .
- 15 - مجلة (اللسان العربي) ع الاول ص 28 المغرب 1381 هـ .
- 16 - كتاب (فلسفة اللغة العربية) للدكتور عثمان امين ص 16 - 17 - القاهرة ومحاضرات الموسم الثقافي لجامعة الازهر 1962 م .
- 17 - مجموعة (تراث الانسانية) المجلد 2 العدد 3 سنة 1964 م - القاهرة .
- 18 - الابنيسد : مجموعة كتب دينية هندوسية - الهند .
- 19 - مجلة (ثقافة الهند) المجلد 11 بحث (انيرودها بهارى سرن) - الهند .
- 20 - مجلة (ثقافة الهند) العدد 2 المجلد 11 مقال البروفيسور (همايون كير) - الهند .
- 21 - مجلة (العربي) العدد 98 يناير 1967 - الكويت .